



لوحة رقم (١٦) الفنان السعودي محمد بن موسى السليم - التكوين الصحراوي

المرحلة الأولى : التحليل الوصفي

عندما نقف أمام هذه اللوحة تنتابنا لحظة توقف أو تأمل وقد يصل بنا الأمر إلى تساؤلات عن تلك التكوينات الغريبة ، والأشكال غير المألوفة لنا ، والتي لم نرها من قبل على ضوء خبرتنا البصرية ، والتي أخذت الامتداد الأفقي الموازي ، والمتكرر للخط الفاصل الذي تلتقي فيه الأرض والسماء ، تلك اللوحة تسمى " بالتكوين الصحراوي " وقد قام برسمها الفنان السعودي محمد بن موسى السليم الذي يعتبر أحد الرواد الأوائل في مسيرة الحركة التشكيلية السعودية ، وقد نفذها عام ١٣٩٧ هـ بواسطة الألوان الزيتية ، وتبلغ مساحة العمل ١٠٠ × ٢٠ سم ، فيبدو من منتصف العمل وهو الموضوع الأساسي الذي درج الفنان عليه في معظم أعماله ، على جعل المنتصف منطلق للإيقاع الأول باحتوائه على موضوعات تجريدية بعناصر بارزة مستمدة من البيئة الصحراوية و مكنوناتها الدفينة ، أو زخارف مكررة بصورة مكثفة مستمدة من التراث الإسلامي العريق ، أو حروفيات

عربية مكتوبة بنمط حديث مستمدة من القرآن الكريم أو الأحاديث الشريفة ، فمن الإيقاع الأول تبدو فيه أشكال مجردة على هيئة خيام صحراوية بنمطها المعروف التي يعيش فيها البدو الرحل ، وحيواناتهم ، والذي تحس فيه قسوة الإنسان البدوي التي تجانست مع قسوة الصحراء التي طوقتهم بظروف بيئية مختلفة ، وطبيعة حياتية متقلبة ، هذه القسوة اعتادها البدوي بإنسانيته وبتلقائيته و أناته ، وصبره في سبيل التكيف ، والتأقلم مع الصحراء بصورة متكاملة ، فمن الموضوع الأساسي تخرج ترددات إيقاعية شكلية ، وخطية ، و لونية متناغمة من الأعلى والأسفل، ممتدة بصورة غير متناهية، ومنها تكونت عناصر الحياة في الصحراء بصورتها المجردة ، وكأن الفنان يجبر عين المشاهد على مد بصره إلى الأفق البعيد الذي لا تراه عينه بصورة مباشرة ، ليرى من بعدها بوادر ظهور أطلال لبيوت شعبية أو ربما انسيابية التلال الصخرية أو ربما قمم جبلية أو أودية محاذية له ، فعندما تركز نظرك إلى الأفق ينتابك شعور بأن تلك الكثبان الرملية قد أخذت شكل الخطوط الأفقية المتعرجة أو الخطوط المتموجة في صورة إيقاع قد يصل بك إلى حد الرتابة أحيانا. فهذا الفراغ المتكرر في أسفل اللوحة وأعلىها ، كأنه غدا أمام أعيننا سراب ينبعث من تكوين اللوحة نفسها الذي يمثل انعكاس الألوان وشفافيتها المتدرجة . وينبعث معه صدى الأصوات الذي يتنقل في أجزاء اللوحة من صوت حفيف الشجر ، أو صوت الريح العاتية ، أو صوت صدى الجبال ، والتلال والأودية ، لتغذي الوجدان الداخلي بالأحاسيس البشرية للمشاركة والتفاعل مع تلك الطبيعة ، ولن تحس وقتها بالوحدة أو الانعزالية وأنت تقف طويلا أمام هذه اللوحة ، لأن الطبيعة سوف تشارك في تلك اللحظة.

المرحلة الثانية : التحليل الشكلي

صفرة الرمال الحارقة ذات اللون الأحادي ، والدرجات المتفاوتة من اللون البني تعد السمة البارزة في كثير من أعمال الفنان محمد موسى السليم ، فذلك الانطباع اللوني يعكس لنا مدى دفء الحياة الصحراوية ، وحتى الألوان الأخرى فهي تجتمع مع اللون الأصفر لتجسد واقع البيئة الصحراوية.

إننا عندما نقف أمام هذا التكوين الصحراوي ، الذي يركز الموضوع عليه على امتداد الخط الأفقي يمينا ويسارا بصورة لا نهائية تجعل عين الرائي تنتظر بقية الموضوع فيما بعد الإطار ، والذي حرص فيه الفنان على عدم إقحامه بعناصر غير موضوعية أو سطحية ، فإنه بذلك يمنحنا الشعور بعمق المشاعر الإنسانية ، والإحساس بالسعادة ، ومسيرة البناء ، والكفاح للإنسان البدوي ، وكذلك يمنحنا خيال خصب معبر عن جمال الصحراء ، وسحرها. على الرغم من أن اللوحة تتضمن العديد من الطبقات الخطية واللونية، إلا أن الإيقاع المتتالي العام يظل على وتيرة واحدة ، فمن تلك الإيقاعات تبرز قدرة الفنان وذاتيته في إيجاد الحلول التشكيلية من خلال إصراره على التنوع المتناغم والمتفاوت في المساحات اللونية، دون أن يدخل نفسه في مسألة التكرار الممل أو الرتيب أو من خلال ربط العواطف الإنسانية القديمة ، والتقاليد العريقة المورثة بنمط يوحي بالبقاء العميق ، والتذكير بها عبر الأجيال الحاضرة أو من خلال الخطوات التي اتخذها الفنان من ناحية الاتجاه نحو التبسيط ، والابتعاد عن التعقيد في تكوينات العناصر والأشكال والخطوط والألوان، أو من ناحية أخرى الاتجاه نحو الاختصار والاختزال في الكتل ، والفراغ ، والابتعاد عن البناء التركيبي المترام ، أو كذلك الاتجاه نحو التجريد ، والابتعاد عن المحاكاة ، والتقليد للطبيعة الصحراوية.

المرحلة الثالثة : تحليل المعنى
أ- التحليل الداخلي أو الضمني

عندما نفكر قليلا في مضامين اللوحة التي أمامنا ندرك أن الفكر الأساس بالنسبة للفنان يقوم على فكرة فن الصحراء أو فن الرؤية الأفاقية الصحراوية، ولذا رسم الفنان تلك الأشكال ، والعناصر، وتلك الألوان ، والخطوط بصورة موحية أو بصورة معانٍ مجازية ورمزية ، فالصحراء ذلك القطاع الجغرافي الموجود على الأرض توحى بحياة الزهد ، والتقشف ، والفقر ، والخلو من مباهج الدنيا وزينتها ، التي يكتسب منها الإنسان البدوي لقمة العيش البسيط ، وليكتسب معها في نفس الوقت أيضا فضائل الرضا ، والقناعة ،

وسكينة النفس ، واصطبارها ، وتحملها على مشقة العيش وقسوته في البيئة الصحراوية ، ومنه نلاحظ مدى تأثر الفنان وانتمائه الشديد للبيئة المحلية بكل مقوماتها الفنية ، ومفرداتها، وعناصرها التشكيلية التي تتمثل في طبيعة الصحراء الجرداء ، وكثبانها الرملية ذات اللون الأصفر الذي يقترب نحو لون الذهب الذي امتد نحو الأفق عندما يأتي ضوء الشمس ، لينتشر فوق سطحها مساحات لونية غير متناهية، وتعكس مع ضوءها جمال بيئة الصحراء، وسحرها الجذاب.

وكان الفنان في منتصف اللوحة يقدم لنا مقطعاً عرضياً جيولوجياً من جوف الأرض لتجاويف الصحراء ، وما تحويه من طبقات ، ومن ظلمات تخرج من رحم الأرض ذلك المكان الذي خرجنا منه ، وإليه سنعود مهما قصر بنا الزمن أو طال ، فالمصير الوحيد هذه الحفرة . فذلك الامتداد الأفقي الذي يخرج من المنتصف ويتجه نحو الأسفل والأعلى ، يوحي لنا بصمت يجبرك على الإنصات إليها همساً تسمع صدى إيقاع الأصوات من خلال الذبذبات ، وتردها الخطي ، واللوني معاً غير المتناهية. لتبدأ حوارك ، واتصالك مع كل أرجاء اللوحة بداية من الحفرة أو الأرض ، ومن ثم إلى الصحراء ، وينتهي بك المطاف إلى السماء بنفس العمق ، وبهدوء سرمدى.

هذا التكرار المتناغم في اللوحة فربما يكون محاولة من الفنان للحاق بسراب الصحراء ، وتوجهاته المتغيرة في لحظة الحر الشديد . فهذا الصدى السرابي أو الضبابي للموضوع الذي يظهر في أسفل وأعلى اللوحة ، يترك خلفه مجموعة من التكرارات بإيقاع متردد توحي بالحيوية لفكرة الموضوع ، وتهز في وجداننا الداخلي نحو اللوحة بصورة متصلة. أو ربما أوحى تلك التكرارات الرتيبة بإيحاء رتابة الحياة وبطنها ، وبطء الزمن معها، أو ربما حملت مظاهر أو ملامح الجمود الذي تقف عنده حدود الخيال الذهني للفنان فلا يرى ، ولا يشاهد سوى جمال الصحراء ، وجمال طبيعتها الذي أسره .

ب- التحليل الخارجي أو غير الضمني

قد ترى في اللوحة ثمة اتجاه يحمل طابع المدرسة السريالية من الأشكال، والتكوينات الغريبة أو اتجاه يقترب من المدرسة التجريدية من خلال اختزال مظاهر العناصر والأشكال الفنية، أو اتجاه يحمل الصفة الرمزية من خلال الإيحاءات المضنية في داخل اللوحة، أو اتجاه يحمل بالتأثر بالمدرسة الانطباعية من خلال الانطباعات التي تتركها تلك الشفافية اللونية.

بل صب الفنان خبرته، وذكاءه وشاعريته التي اكتسبها من عشقه للصحراء وتأثره بجمالها الدافئ، وكتبانها المتموجة، وكذلك من خصوصيته العربية، وتفردده، ومن التجارب المتواصلة التي خاضها في مسيرته الفنية، ومحاولاته الجادة، والمستمرة من أجل الوصول إلى نهج فني يقترب من الاتجاهات الفنية الحديثة بصورة فريدة يجمع ما بين نمط شرقي ومحلي، في بوتقة تفصل بين التجريد، والتشخيص